محطة براغ: البنيوية التشيكية

د. عبد النبي اصطيف

هل البنيوية التشيكية امتداد لـ الشكلية الروسية، ونسخة محدثة عنها؟ أم إن لها إسهامها المميز الجدير بالدراسة والإفادة؟

يرى البعض أن البنيوية التشيكية (أو حصيلة جهود ما يسمى بحلقة براغ اللغوية في مجالي اللسانيات والنقد الأدبي والفني) ليست غير امتداد للشكلية الروسية التي انحسر نشاطها بشكل جذري بدءاً من عام 1923 الذي شهد حلّ جمعية (أوبوياز – جمعية لدراسة اللغة الشعرية) من جانب أعضائها، وانضمام معظمهم إلى مؤسسات الدولة الجديدة، متابعين نشاطهم في جبهة الفن اليسارية، أو في معهد الدولة لتاريخ الفن في بتروغراد، وانتهاءً بعام 1930 الذي أعلن فيه شكلوفسكي تخليه عن أخطاء الشكلية الروسية وأنهى عمل الحركة، استجابة فيما يبدو للهجوم المستمر الذي قادته البيروقراطية الرسمية ممثلة بـ لوناتشارسكي من جهة، ونخبة من زعماء الثورة الذي كان من أبرزهم ليون تروتسكي الذي خصص فصلاً كاملاً من كتابه الأدب والثورة (1924) لما سماه بالمدرسة الشكلية حمل عنوان: «المدرسة الشكلية للشعر والماركسية». ويعود هذا الرأي إلى انطباع ناجم عن حضور، واضح المعالم للشكليين الروس في أعمال البنيوية التشيكية ونشاطاتها المختلفة، تجلى في:

1. الحضور الطاغي لرومان جاكبسون الذي غادر موسكو عام 1920 إلى براغ ليعمل مترجماً، ثم ملحقاً ثقافياً في بعثة الصليبة الأحمر الروسي، ومع أنه ترك عمله فيها، فإنه ظل في العاصمة التشيكية حتى عام 1939 عندما فرّ إلى الدانمارك هرباً من النظام النازي.

ومن المعروف أن جاكبسون قد شارك عام 1926 في تأسيس مع فيلِم ماثيوسيوس ولفيف من الباحثين التشيك والروس كان من أبرزهم تروبتسكوي، وموكاجوفسكي، وبوغاتيريف، حلقة براغ اللغوية، وظل نائباً لرئيسها نحواً من ثلاثة عشر عاماً. وأنه حصل على الدكتوراه عام 1930، وتولى التدريس في جامع ماساريك T. G. Masaryk في Brno عام 1931، ليتسنم كرسي فقه اللغة الروسي والأدب التشيكي عام 1973.

2. مشاركات بعض أعضاء الشكلية الروسية في تأسيس حلقة براغ اللغوية (رومان جاكبسون وبيتر بوغاتيريف، واللسانيين الروسيين البارزين نيكولاي تروبتسكوي وسيرغي كارسيفسكي) ونشاطاتها، ولاسيما إلقاء المحاضرات، فقد شهد عام 1928 محاضرات لكل من بوريس توماشفسكي (المدرسة الجديدة للتاريخ الأدبي في روسيا، بالفرنسية)، ويوري تينيانوف (مشكلة التطور الأدبي، بالفرنسية)، وغريغوري فينيكور(عن المشكلات اللسانية، بالألمانية).

3. أعمال أعضاء الحلقة التي حفلت بالإشارات إلى كتابات الشكليين الروس (شكلوفسكي، وآيخبنادم، وتينيانوف، وآريتوشكوف وبرنشتاين وشتوكمار).

4. ترجمة العديد من أعمال الشكليين الروسي إلى التشيكية في وقت مبكر(شكلوفسكي، تينيانوف، توماشفسكي في العشرينيات، وبريك، تيتيانوف، آيخبنارم، في الثلاثينيات) فضلاً عن كتاب شكلوفسكي نظرية النثر (الذي ظهرت ترجمته إلى التشيكية عام 1933)، والمختارات الشاملة لكتابات الشكليين الروس التي ظهرت عام 1941م مشفوعة ببيبليوغرافيا تضم 350 مادة طبعت في ترانافا في سلوفاكيا، وإتاحتها من ثَمَّ لجمهور القراء خارج روسيا عقوداً قبل الترجمات الألمانية (1963) والإنكليزية (1965) والفرنسية (1966)، وبهذا يكون أعضاء الحلقة من أوائل متلقي إنجازات الشكلية الروسية.

والحقيقة أن انطباعاً كهذا له ما يسوّغه في ضوء ما تقدّم من مؤشرات على حضور الشكلية الروسية في كتابات أعضاء حلقة براغ اللغوية، وهو، فيما يبدو، ما جعل الباحث الرائد فيكتور إرلنج ينظر إلى الحلقة في كتابه الشكلية الروسية (الذي صدر بالإنكليزية عام 1955) على أنها مجرد نموٍّ طبيعي للشكلية الروسية، ومن ثَمَّ جعله يتحدث عن الموضوع برُمَّته على أنه

تروبتسكوي

ليون تروتسكي

رومان جاكسبون

ضرب من الشكلية السلافية Slavic Formalism التي بدأت من روسيا وانتشرت بعدها في كل من تشيكسلوفاكيا وبولندا، مركزاً باستمرار على المشابهات التي جمعت بين الحركات الثلاث، غير أن ما يسمى بالشكلية التشيكية Czech Formalism كانت مدرسة فكرية محددة واضحة المعالم في جماليات القرن التاسع عشر، وهي مدرسة متميزة تماماً عن الحركة البنيوية اللاحقة، التي كانت حلقة براغ اللغوية وراء نشأتها ونموّها وتطوّرها في القرن العشرين.

ورغبة في توضيح حقيقة صلة البنيوية التشيكية بالمنجز الشكلي الروسي؛ فإن من الضروري أن يشير المرء إلى ثلاث فترات في تاريخ حلقة براغ اللغوية تضع هذه الصلة في منظورها الصحيح.

فأما الفترة الأولى فتمتد بين عامي 1926 و1934، وكانت نظرة الحلقة فيها نظرة تشبه إلى حد بعيد نظرة الشكليين الروس من حيث اهتمامها بدراسة التنظيم الداخلي للعمل الأدبي وبدراسة بنيته الفونولوجية بشكل خاص، وربما كان من أبرز ثمارها دراسات كل من جاكبسون وموكاجوفسكي عن العروض التشيكي.

وأما الفترة الثانية ففترة أقصر تمتد نحواً من ثلاثة أعوام (1934-1938) انقطعت فيها الصلة ما بين حلقة براغ اللغوية والتقليد الشكلي الروسي؛ حيث انصرف اهتمام الحلقة في أثنائها إلى:

- دراسة «مشكلة التطور الأدبي» التي أثارها الشكليون الروس دون أن يصلوا إلى حل لها، وجعلها البنيويون التشيكيون في المركز من اهتماماتهم وتنبهوا إلى الصلة الوثيقة بين التغيرات الملحوظة في التاريخ الأدبي ومختلف وجوه الثقافة الإنسانية.
- ودراسة المفهوم السيميائي للعمل الأدبي وتوجيهه توجيهاً اجتماعياً، وذلك بالنظر إلى العلامة في هذا المفهوم على أنها «فهم جملة محددة».

وأما الفترة الثالثة والممتدة بين عامي (1938-1948) فقد كانت فيها الحلقة بعيدة كل البعد عن الشكلية الروسية؛ حيث غلبت عليها الاهتمامات الجمالية، فضلاً عن اهتمامها بالعالميات أو الكليات universals ودور «الذات» في الفن. فقد توسعت الحلقة بفن الشعر أو الشعرية، ومضت في دراساتها من الاهتمام بالفن اللفظي وحده إلى الاهتمام بكل الفنون الجميلة، دون أن تهمل دراسة جماليات مافوق الفن. وسعت إلى إقامة علم قيم جمالي، مسقطة المقولات السوسيرية على الإطار الأوسع للأنظمة السيميائية لمختلف الفنون الجميلة.

وباختصار شديد يمثل المسعى البنيوي التشيكي افتراقاً تدريجياً عن المسعى الشكلي الروسي في محاولة دائبة لتحقيق استقلالية التفكير في مختلف قضايا الفن والفكر لجملي

«نسيس» حياة نصر

لماذا حولتني إلى كمشة رمل؟!
تبعثرني..
تجمعني..
في يديك
كيفما تشاء

بهذا التساؤل تختصر الشاعرة حياة نصر «نسيس» عنوان مجموعتها الثالثة بعد ثرثرة الريح للأغصان الصادرة عام 2005 وأتون 2008.

وتتشابه المجموعات الثلاث في اختيار الومضة الشعرية والنأي عن المباشرة والخطابية وفيها وعد واضح:

عندما تمتلئ جعبتها أسهماً ستصطاد
كل لحظاته الجميلة فمن هو ذاك اليدوي
المخاطب في افتتاح المجموعة:

أيها البدوي
مديدة أطناب خيمتك
في أرجاء القلب
ولم تترك
نسخة
حتى لماذا
أطراف المرابع
بموطئ قدم

وللمرأة تقول حياة نصر في نسيسها:

أيتها الأخرى
لا تفرحي كثيراً
لابد ان يتركك يوماً
في أقبية معتمة
شبه امرأة
مبعثرة كزجاج مكسور

المجموعة في 115 صفحة صادرة عن دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع.